الظاهرة الهامة (*)

وتأويلها

للأستاذ محمد أديب العامري

من الناس من يموت فجأة ، فهذا يقف قلبه عن النبض لتوقف الأعصاب التي تحركه ، فلا يصل الدم إلى أجزاء الجسم ، فتهبط الحرارة ويقف الغذاء ويسكن الجسم ، ثم ينحل من بعد . وهؤلاء لا يعانون دور النزع الذي يسبق انقطاع المرء عن الحياة ؛ ومن ثم لا يصاحبهم بالطبع هذيان النزع الأخير .

ومن الناس من يموت متدرجاً ببطء شديد ؛ فاذا تقدم في السن إلى حد بعيد تصلبت أوعيته الدموية ، وتيبست عضلاته ، وتعب جهازه العصبي ، وأضاع كثيراً من رشده . ومن المعتاد أن مثل هؤلاء أن يفقدوا شيئاً من قواهم الشعورية التفكيرية قبل موتهم بأشهر ، بل بسنين ؛ فيصرحون بأشياء لا يصرح بها الانسان السوي عادة ، ويتحدثون أحاديث تحمل الناس على اعتبارهم مجانين ، أو أشباه مجانين .

ولكن أكثر الناس يموتون في فترة ، لا هي قصيرة كالفجائية ، ولا هي زائدة الطول كما هو الحال في « الموت تدريجي » . فهؤلاء يقعون في المرض فيؤثر المرض على بعض أجزاء أجسامهم ؛ وهم أثناء ذلك يحتفظون بقواهم العقلية من شعور ووعي وتفكير ؛ فاذا استفحل المرض أثر على الجهاز العصبي فتعطل قوته الواعية (الشعور) وتحكم في المريض جزء آخر من قواه العقلية ، وهذا الجزء هو المسئول فيما أعتقد عما يظهر على المريض من هذيان .

وقبل أن نتوسع في شرح ما يقع للمريض في هذه الحالة حالة « الموت التدريجي » أحب أن أتعرض قليلاً لعمليات العقل الانساني ، في هذه العمليات التأويل المرجح لظاهرة الهذيان التي تسبق الموت .

عقل الانسان هو عبارة عن قواه المدركة التي يسميها علماء النفس « الشعور » مضافاً إليها قواه الفكرية الأخرى التي يسمي بعضها « شبه الشعور » ويسمي بعضها « اللاشعور » أو « العقل الباطن » . فعند ما تكتب مقالة فأنت تفكر تفكيراً عنيفاً مقصوداً وموجها ، وهذا العمل نوع من الأعمال الشعورية وعندما تحل مسألة رياضية أو عقلية فان عملك هذا يعتبر من نوع الشعور كذلك . والأعمال الشعورية التي يعملها الانسان قليلة وإن ظهر أول الأمر أنها كثيرة . أما المشي فمن أعمال المرء شبه الشعورية . فانك عند ما تقصد من بيتك إلى السوق تطلق رجليك دون تفكير شعوري واع في الشوارع والمنعطفات . وآية ذلك أنك تستطيع أن تقوم بعمل عقلي شعوري أثناء المشي ، وعمل اللاشعور من أعمال العقل التي نظن عادة أنه أقلها أهمية ولكنه في الواقع أكثرها إشغالا لقوانا العقلية وأكثرها دلالة على حقيقة شخصياتنا . فأنت تكون تعمل عملا شعورياً متعباً فلا يلبث تفكيرك أن ينصرف إلى أفكار خيالية بعيدة الوقوع . فأنت ترى نفسك وقد غنيت أو امتلكت أملاكا عريضة ، أو تزوجت من فتاة جميلة ، أو حصلت على شهادة عالية وأنت لا بث مكانك لم تنفض يدك من عملك . وتنصرف حالا إلى الانتقام من خصومك أو التحبب إلى أصدقائك على نحو لا يتأتى لك حين تفكر في أساليب هذا الانتقام أو التحبب ويقع ذلك أثناء اليقظة وتسمى هذه الأفكار « أحلام النهار » فاذا ما تمت تعطل معظم التفكيرين الشعوري وشبهه وانطلق اللاشعور يعمل عمله . فأنت في النوم طائر مرة ، محارب أخرى ، مسافر ثالثة . وبالجملة يقع لك ما كنت ترغب في تحقيقه فامتنع عليك فانشغل به اللاشعور بعد أن أعرض الشعور عن حمل المرء على تحقيقه . وأهم ما يجب أن يعرف من هذا هو أن « أحلام النهار » والأحلام العادية وعمل النفس اللاشعوري إنما يكون أهمها في رغبات الانسان المكبوته ، وما كان يعمله لو أتيحت له الوسائل . ومن هنا ترى أن أكثر أعمال المرء في يقظته ونومه إنما هي أعمال لاشعورية

والذي يلاحظ المريض المقبل على الموت يرى أنه ينتقل من وعيه الكامل إلى هذيانه شيئاً فشيئاً ، فهو يهذي بادي الأمر شيئاً قليلاً بينا يتخلل هذيانه تفكير واع ، ثم يتمادى في الهذيان حتى يطغى الهذيان عليه ، فلا يكون كلامه إلا خليطاً لا يتصل

(*) أنظر مقال الأستاذ عبد الغني علي حسين من الصفحة ١٣٣١ من عدد سالة ٢١٥ .

بالشعور أو شبهه بسبب . والاصغاء إلى المتوفي فى هذه الحالة دراسة مهمة لشخصيته وتفكيره ومتاعبه . لأنه يفكر آنئذ بلا شعوره ويعطيك نفسه غير مغلقة ولا مصطنعة . والأرجح أن جميع ما يصدر عن المريض له تعليل على هذا الأساس ، أى أن هذيانه تفكير لاشعوري .

وأحسن مانشبه هذه الحالة بالنوم ، فالنوم فى الواقع شبه موت مختصر ، تثور فيه رغبات المرء المكبوتة ومخزونات اللاشعور العديدة على صورة أحلام . والذين تجرى أحلامهم على ألسنتهم أثناء النوم يتحدثون حديثاً يشبه الهذيان . على أن هذا الهذيان نفسه أصح دلالة كما قلت على نفسية النائم مما يصرح به أثناء وعيه الكامل عن شعور محكم مضبوط . ولهذا يعمد المحققون إلى مثل هذه الحالات ليعرفوا منها أسراراً يقصدون إليها . وهم لذلك يلجؤون إلى طرق طبية خاصة توصلهم أحياناً إلى أغراضهم .

واصغ إلى هذيان المريض تجد أنه يحدثك عن أهم المشاكل التى كانت تعترضه فى حياته . ويساعدك على تحقيق هذا معرفة بالمريض تكون قد أطلعتك على أحواله الخاصة . ومع أن هنالك مايؤيد أن المريض إذا أقبل على الموت عرف ذلك ، فان هذا لايدل على أن المريض يرى شيئاً من الحياة الثانية ويتحدث عنه ، إلا إذا كان هو من شديدى الايمان بهذه الحياة والعناية بها والتحدث عنها بحيث أنها تشكل فى عقله قسماً من أفكاره اللاشعورية التى يتحدث عنها وهو يهذى . ونحن هنا يجب أن نلتمس التأويل الممكن لحديث بعض المحتضرين عن أناس توفوا قبل .

فما قيل من أن محتضراً « كان يتحدث إلى الموتى كما لو كانوا منه على مرأى وعلى مقربة » سهّل التأويل على أساس نظرية اللاشعور . وأما أن هنا لك « حالات هتف فيها المحتضر باسم شخص مات ولم يكن المحتضر يعرف أن ذلك الشخص قد مات» فقول يحتاج بعد إلى تحقيق شديد . فالمرء قد يختزن في لا شعوره معلومات لا تكون فى متناول شعوره دائما ، فهو ينكر معرفتها في حال وعيه وشعوره فى حين أنها ترد على خاطره حين يتيه فكره لاشعوريا ، فلا يكفى قول رجل لك عن أمر إنه لا يعرفه دلالة على عدم معرفته ، إذ المرء نفسه قد يجهل أنه يعرف شيئاً مختزناً فى اللاشعور .

وإذا أريد الوصول إلى قرار علمى صحيح فى هذه الظاهرة فلا يجب أن تحمل أقوال المحتضر على شئ خاص حين يمكن حملها على معانٍ طبيعية عادية . فقول مريضة محتضرة عن شقيقة لها سبقتها إلى الموت دون أن تعلم « انظروا هذه هي شقيقتى إنها تقول أنها ستكون معى . لماذا لم تخبرونى بذلك ؟ » قول لا يدل دلالة قاطعة على أن الشقيقة المحتضرة عرفت قبيل موتها عن موت أختها ، كما يتضح من التأويل التى يمكن أن يؤولها هذا الكلام بصورة طبيعية ، أن العمد إلى تأويل روحية غير مستندة إلى ما يعتمد عليه العلم من وسائل الاثبات لا يزيد إيضاح هذه الظاهرة شيئاً ، بل يزيدها تعقيدا

هذا — ولا ريب أن المريض يعرف قبل الموت بزمن ، قصر أو طال ، بأنه سيموت . والرجل المسن الذي يرى قواه العقلية تنحط وقواه الجسدية تذهب ، هو رجل يموت فى الواقع ، وهو يعرف أن انحطاطه هذا آيل به إلى الموت . فعند مايقع خلل فى أحد أجهزة الجسم المهمة يتحقق المرت ولا سيما إذا كان عالماً بشئ من طبيعة الحياة . والانسان المريض الذى يقبل على الموت يعلم قبيل موته فى الغالب أنه سيموت ، لأن الانحطاط الشديد الناتج من اختلال العمل فى بعض الأجهزة كما مر لا بد وأن يشعر المرء إشعاراً داخلياً بيناً بأن الخيط الذى يصله بالحياة وشيك الانبتات ، فلعل هذا هو الذى ينقله إلى التفكير اللاشعورى فى الحياة الثانية وفى معارفه الذين سبقوه اليها .

« عمان »

محمد أديب العامرى
مدير مدرسة عمان الثانوية

رفائيل
لشاعر الحب والجمال لامرتين
مترجمة بقلم
احمد حسن الزيات
تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن إدارة «الرسالة»
الثمن ١٢ قرشاً